اسلوب المؤرخين العرب

في كتابة التاريخ

٣ — الكتابة حول السنين

قلنا إن بعض المؤرخين جعلوا الكلام في ابحاثهم يدور على الحادثات والملوك واوردنا الامثلة العديدة على ذلك ولا يسعنا هنا الا ان نؤكد انّ ثمة كثيرة من المؤرخين العرب اخذت السنين محور البحث في الفتوحات والوقائع والفتن الشهيرة فابن خلدون صاحب المقدمة المعروفة رتب تاريخهُ على السنوات وقد وصفهُ حاجي خليفة بما يأتي « . . . وهو كبير عظيم النفع والفائدة رُتب على السنوات . رُوي انهُ كان في وقعة تيمور قاضياً بحلب فحلّ في قبضتهِ اسيراً صغيراً فكان يصاحبهُ وسافر معهُ الى سمرقند فقال لهُ يوماً لي تاريخٌ كبير جمعت فيهِ الوقائع بأمرها خلفتهُ بمصر وسيظفر بهِ المجنون يشير الى برقوق . فقال لهُ هل يمكن تلافي هذا الامر واستخلاص الكتاب فاستأذنهُ في ان يعود الى مصر ليجيئهُ بهِ فاذن لهُ ولعلّ ذلك الكتاب هو (العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والروم والبربر) وقد اشتهر نحو ثلثهِ بالمقدمة ودون مفرداً »[1]

كذلك فعل الطبري فانهُ رتب كلامهُ في التاريخ على السنوات وقد انتهى في كتابهِ الى سنة ٣٠٩ هجرية . وتداولت الايدي هذا المؤلف المعدود من الثقات فترجم الى الفارسية والتركية وقد اسهب حاجي خليفة ايضاً في وصفهِ فقال « وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لاخبار العالم ابتدأ من اول الخليقة وانتهى الى سنة ٣٠٩ وسماهُ تاريخ الامم والملوك . وذكر ابن الجوزي انهُ بسط الكلام في الوقائع بسطاً وجعلهُ مجلدات وان المشهور المتداول مختصر من الكبير وانهُ هو العمدة في هذا الفن . وذكر ابن السبكي في طبقاتهِ « انّ ابن جرير قال لاصحابهِ هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا » قالوا كم قدرهُ فذكر انهُ ثلاثون الف ورقة فقالوا « هذا مما يفنى الاعمار قبل اتمامهِ فقال « إنا لله ماتت الهمم » فاختصرهُ في نحو ما اختصر التفسير . ونقلهُ ابو علي محمد البلعمي من وزراء السامانية الى الفارسية اولهُ « الحمد لله العلي الاعلى » ذكر فيهِ ان منصور بن

(١) حاجي خليفة ج ٢ ص ١٢٤ وج ٤ ص ١٨٣

نوح السامانيّ امر بترجمته لامينه وخاصته أبي الحسن سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ونقله غيره الى التركية وهو المتداول بين عوام الروم والذيل عليه لابي محمد عبد الله بن محمد الفرغاني وعُرف هذا الذيل بالصلة »[1]

ومن المؤلفين المشهورين الذين اوردوا الحادثات حسب السنين الملك ابو الفدا صاحب حماه فكتابه « المختصر في اخبار البشر » هو ملخص كتاب الكامل لابن الاثير الاّ انهُ رتب الحادثات فيهِ حسب السنين وقد اختصر هذا الكتاب وذيل عليهِ ابن الوردي المصري فقال في سبب تلخيصهِ « الى رأيت المختصر في اخبار البشر تأليف مولانا السلطان الملك المؤيد صاحب حماه من الكتب التي لا يسع جهلها فانهُ اختارهُ من التواريخ التي لا تجتمع الاّ للملوك فاختصرتهُ في نحو ثلثيهِ فكفل بوجازة اللفظ وكمال المعنى ونمقتهُ بيانًا وألحقتهُ اعيانًا واودعتهُ شيئًا من نظمي ونثري وحذفت منهُ ما حذفهُ أسلم وقلت في اول ما زدتهُ «قلت »وفي آخره «والله اعلم» وسأذيلهُ من سنة تسع وسبعمائة التي وقف المؤلف عليها . . . . وسميتهُ «تتمة المختصر في اخبار البشر» واعلم ان التواريخ القديمة في هذا الكتاب مؤلفة على مقدمة وخمسة فصول والتواريخ الاسلامية مرتبة على السنين[2]»

وقد اسهب حاجي خليفه في وصف هذا الكتاب فقال ان « المختصر في اخبار البشر في مجلدين للملك المؤيد اسماعيل بن علي الأيوبي المعروف بصاحب حماه . توفي سنة ٧٣٢ هـ اولهُ « الحمد لله الذي حكم على الأعمار بالآجال الخ » اورد فيهِ شيئًا من التواريخ القديمة والاسلامية ليكون تذكرةً تغنيهِ عن مراجعة الكتب المطوّلة واختصر من الكامل وغيرهِ من نحو عشرين مجلداً ورتب التواريخ القديمة على مقدمة وخمسة فصول والتواريخ الاسلامية على السنين حسب تأليف الكامل ، المقدمة تتضمن ثلاثة امور . الاول في كثرة الاختلاف بين المؤرخين . الثاني في معرفة نسخ التوراة . الثالث في معرفة جدول اقترحهُ يتضمن ما بين التواريخ من المدد . الفصل الاول في ذكر الانبياء وحكّام بني اسرائيل والثاني في ذكر ملوك الفرس والثالث في ذكر الفراعنة وغيرهم والرابع في ملوك العرب والخامس في ذكر ام العالم وانتهى فيهِ الى سنة ٧٢١ هـ[3]»فترى ان حاجي خليفة ألمّ بجميع المواضيع التي بحث فيها ابو الفداء

ومن الكتب التاريخية المرتبة عمومًا حسب السنين كتاب بدائع الزهور في وقائع

(١) حاجي خليفه ج ٣ ص ١٣٦ — ١٣٧

(٢) مقدمة ابن الوردي ص ٢ — ٣ (٣) حاجي خليفة ج ٥ ص ٤٤٧ — ٨ — ٩

الدهور المطبوع بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر سنة ١٣١٨ هـ وهو في اربعة مجلدات وقد انتهى فيه الى سنة ١٥٢٢ م

٤ — الكتابة حول المدن

وقد اخذت طائفة كبيرة من شاهير المؤرخين العرب المدن الكبيرة قاعدة لبحثها فابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ذكر اخبار دمشق والذين نبغوا من ابنائها وكل من حل فيها سواء كان نبيًّا او خليفة او عالمًا او شاعرًا او فقيهًا او لغويًّا او اخباريًّا او نسابًا ولم يترك حكاية مستملحة او حكمة رائعة او شعرًا لطيفًا له علاقة بكل من وطئت قدماه دمشق من المعروفين الا ذكرها ولصّها على قارئيه . وهنا لا يسعنا الا ان نقول ان ابن عساكر وامثاله ليسوا الا من الجامعين الذين يجمعون حرفيًّا كل ما يقع بين ايديهم من الحقائق في الموضوع الذي يكتبون فيه من غير ان يكون بينها رابطة عقلية منطقية وثيقة

اما حاجي خليفة فيعجب بهذا المصنف لابن عساكر فيذكر انه يقع في ثمانين مجلداً ويشبهه تاريخ بغداد لابن الخطيب ونعترف نحن بهذه المناسبة والاسى يملأ قلبنا حزنًا اننا لم نشاهد لتاريخ بغداد من اثر ولعله في احدى المكاتب الاوروبية او في احدى الخزانات الشريفة التي لا يمكن لاحد ان يناله منها سوى العث والحشرات الفتاكة بالكتب . وقد ذيّله بعضهم واختصره آخرون وهاك ما يذكره حاجي خليفه بهذا الصدد « تواريخ دمشق اعظمها تاريخ الامام الحافظ ابي الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ هـ وهو في ثمانين مجلداً ذكر تراجم الاعيان والرواة ومروياتهم على نسق تاريخ بغداد للخطيب لكنه اعظم منه حجمًا . ولهذا التاريخ اذيال منها ذيل ولد المصنف القاسم ولم يكمله وذيل صدر الدين البكري وذيل عمر بن الحاجب . وله مختصرات ايضًا منها ما اختصره الامام ابو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي المقري المتوفى سنة ٦٦٥ وهو نسختان كبرى في خمسة عشر مجلداً وصغرى . ومن اختصر تاريخ ابن عساكر القاضي جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري صاحب لسان العرب المتوفى سنة ٧١١ هـ تركه في نحو ربعه والشيخ بدر الدين محمود بن احمد العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ انتقى منه جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ وسماه « نخبة المذاكر والمنتقى من تاريخ ابن عساكر » [1]

(١) حاجي خليفة ج ٢ — ص ١٣٠ — ١٣١

وقد حاز هذا التاريخ اعجاب كل من اطلع عليهِ من العلماء السالفين اذ يظهر لنا قوة الجلد التي امتاز بها ابن عساكر لجمع كتابهُ كما اشرنا قبلاً في ثمانين مجلداً . وروى ابن خلكان حديثاً جرى لهُ مع استاذهِ المنذري عن هذا التاريخ يثبت تقدير العلماء لهُ . يُلخص فيما يأتي « قال لي شيخنا الحافظ العلامة زكي الدين ابو محمد عبد العظيم المنذري حافظ مصر وقد جرى ذكر هذا التاريخ واخرج لي منهُ مجلداً وطال الحديث في امرهِ واستعظامهِ « ما اظن هذا الرجل الاَّ عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسهِ وشرع في الجمع من ذلك الوقت والاَّ فالعمر يقصر ان يجمع فيهِ الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبيه » ولقد قال الحق ومن وقف عليهِ عرف حقيقة هذا القول ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يضع مثلهُ وهذا الذي ظهر هو الذي اختارهُ وما صحَّ لهُ هذا الاَّ بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها ولهُ غيره تواليف حسنة واجزاء ممتعة ولهُ شعر لا بأس بهِ »[1]

وللامام ابي الوليد محمد بن عبد الكريم الازرقي كتاب « تواريخ مكة » جرى بهِ على الخطة التي امتهدنا في وصفها . ومختصرهُ معروف « بزبدة الاعمال »

اما المقريزي مؤلف كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » فوصف كل ما عثر عليهِ من الآثار كالمساجد والقصور والخطط والمباني الشريفة وتطرق خلال ذلك الى البحث عمن شادوها وما قيل فيها من الحكم والاشعار واللطائف . وترى ان اسلوبهُ سهل منسجم خال من التعقيد وقد لاق مصاعب جمة في جمع الحقائق وتدوينها . ويمتاز بالتدقيق الاَّ انهُ لم ينسب المادة التي عني بها الى مآخذها ومراجعها الاصلية وهاك مواضيع الكتاب حسبما ذكرها . « . . . وكانت مصر هي مسقط رأسي وملعب ابرابي ومجمع ناسي ومغنى عشيرتي . . . لا زلت منذ شذوت العلم . . . ارغب في معرفة اخبارها وأحب الاشراف على الاغتراف من آبارها واهوى مسائلة الركبان عن سكان ديارها فتبدت يخطي في الاعوام الكثيرة وجمعت من ذلك فوائد قلَّ ما يجمعها كتاب او يحويها لعزتها وغرابتها . . . الاَّ انها ليست بمرتبة على مثال ولا مهذبة بطريقة . . . فأردت ان أُلخص منها انباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الامم الماضية والقرون الخالية وما بقي بفسطاط مصر من المعاهد غير ما كاد يُفنيهِ البلى والقدم واذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة وما اشتملت عليهِ من الخطط والاصقاع وحوتهُ من المباني البديعة الاوضاع

(١) ابن خلكان طبعة باريس سنة ١٨٣٨ ص ٤٦٣ — ٤٦٤

مع التعريف بحال من اسس ذلك من اعيان الاماثل والتنويه بذكر الذي شادها من سراة الاعاظم والافاضل واثر خلال ذلك نكتاً لطيفة وحكماً بديعة شريفة من غير إطالة ولا اكثار ولا اجحاف مخل بالغرض ولا اختصار بل وسط بين الطرفين فلذا اسميته (كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) » [1]

ورتب لسان الدين الخطيب الكلام في مصنفه « الاحاطة في اخبار غرناطة » على غرناطة الجميلة فكتب عن جغرافيتها واحوال اجتماعها وملوكها واسرائها وطبقاتها وعلمائها حتى ذكر اهل التصوف فيها وتخلل ابحاثه هذه كلها الاشعار الكثيرة والاخبار الطريفة ووصف الترتيب الذي جرى عليه والمواضيع التي طرقها فقال « والترتيب الذي انتهت اليه جبلتي وصدقت في اختياره مخيلتي هو أني ذكرت البلدة حاطها الله منبهاً منها على قديمها وطيب هوائها وأديمها واشرق ملاها واشرف حلاها ومن سكنها وتولاها واحوال ناسها ومن دال بها من ضروب القبائل واجناسها . . .

«وذكرت الاسماء على الحروف المبوبة وفصلت اجناسهم بالتراجم المرتبة فذكرت الملوك والامراء ثم الاعيان والكبراء ثم الفضلاء ثم القضاة والمقرئين والعلماء ثم المحدثين والفقهاء وسائر الطلبة النجباء ثم الكتاب والشعراء ثم العمال والامراء ثم الزهاد والصلحاء والصوفية والفقراء . . . لينتظم الجميع انتظام السلك وكل طبقة تنقسم الى من يسكن المدينة بحكم الاصالة والاستقرار او طرأ عليها مما يجاورها من الاقطار او خاض اليها وهو الغريب أثباج البحار أو ألمّ بها ولو ساعة من نهار فان كثرت الاسماء نوعت وتوسعت وإن قلّت اختصرت وجمعت

« وآثرت ترتيب الحروف في الاسماء ، ثم في الاجداد والآباء ؛ لشذوذ الوفيات والمواليد التي يرتبها الزمان عن الاستقصاء وذهبت الى ان اذكر الرجل ونسبهُ واصلهُ وحسبهُ ومولدهُ وبلدهُ ومذهبهُ واشير لهُ الى الفنّ الذي دعا الى ذكره وجلبه وشيخه إن كان ممن قيد علماً او كتبهُ ، ومآثرهُ إن كان ممن وصل الفضل سببهُ ، وشعرهُ إن كان شاعراً ، أو ادبهُ وتصانيفهُ إن كان ممن الف في فن او هذبهُ ، ومهنتهُ إن كان ممن امدهُ الدهر شيئاً وسلبهُ ثم وفاتهُ ومنقلبهُ اذا استرجع اليه من منحهُ ما وهبهُ

« وجعلت هذا الكتاب قسمين ومشتملاً على فنين : القسم الاول : في حلى المعاهد والاماكن والمنازل والمساكن ، القسم الثاني في حال الزائر والقاطن والمتحرك والساكن» [1]

(١) مقدمة المقريزي ص ٢ — ٣

ومن الذين جعلوا المدن مركزاً لابحاثهم صالح بن يحيى المؤرخ صاحب كتاب تاريخ بيروت فسطر فيه آثارها وفتوحها وما جرى بها من القرن السادس الى القرن التاسع للهجرة ونفع اهمية هذا التأليف في امرين الاول اهتمام المؤلف بما شاهد من الحوادث في أيامه والثاني تجرده عن المبالغة والمدح والاطناب . ويهب صالح في ذكر بني بحتر امراء غربي لبنان و بيروت . وقد سعى بنشره وتهذيب عبارته وتعليق حواشيه وفهارسه الاب لويس شيخو اليسوعي وطبع في المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٨٩٨ . وإنا لنأسف جد الاسف لتهذيب عبارة الكتاب وكنا نود لو ينشر على علاته فنتذوق اسلوب الكاتب ونفهم روحه الساذجة في ذلك العصر . ثم لو هذبت عبارته وطبعت على الصفحات المقابلة للاصل لكانت الفائدة التاريخية اتم وأكمل فلا يختلط المطالع المدقق بين انشاء الاب شيخو وانشاء صالح بن يحيى

اما طريقة المؤلف فهي كما يقول الاب شيخو « ساذجة متبادرة الى الفهم لم يتحرَّ بها سوى افادة آله الشرفاء ليبقى لهم اثراً يفتخر به الخلف بعد السلف . وجعل لتاريخه ابواباً وتقاسيم يتمكن بها القارئ من احراز فوائده الشتى وكثيراً ما يلخص في اول الفصول ما سبق ذكره تسهيلاً للمطالع » (١)

والحق ان تاريخ بن يحيى مع جميع ما نُقل عن تاريخ حمزة بن سباط « اوقفنا على احوال بيروت الى آخر عهد الملوك المصريين و بداءة دولة عثمان » وهاك ما يقوله صالح معترفاً بالاعتدال والتجرد عن المصلحة فيما كتب « يقول العبد الفقير الى الله تعالى صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين امير الغرب لطف الله به من ذرية بحتر بن علي امير الغرب ببيروت جمعت هذه التذكرة معتذراً الى الواقف عليها من ركة اللفظ ومواقع الخطاء بعد الاجتهاد على صحة النقل وحذف الفضول لأني لا اريد أن اكون مغالياً في السلف فاصفهم بأزيد مما فيهم او حسوداً فانتهم بما ليس فيهم . وقد جعلت هذه التذكرة وقفاً على البيت لا تخرج عن الخلف ولا تعار لغيرهم ... جمعت ذلك بارضح برهان واصدق دليل ولست فيه بكابط شواء » (٢)

دار المعلمين ببغداد انيس زكريا العصولي

(١) مقدمة الاب شيخو في تاريخ بيروت ص ٤

(٢) مقدمة صالح بن يحيى ص ٦ — ٧ وراجع ص ٢٧٠